مجلة التجديد العربي Arabic Renewal Journal

مجلة دولية نصف سنوية محكمة شاملة تصدر عن المعهد العالمي للتجديد العربي العدد الأول/ يناير 2021

المسيحية في بلدان المشرق الإسلامي بين الأمس واليوم: قراءة في التاريخ والواقع و التحديات

الأستاذة الدكتورة. سماح حمزة

استاذة في كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة – تونس

samehhamza.civilisation@gmail.com

المقدّمة:

يتنزّل هذا المقال حول مسيحية المشرق العربي الإسلامي في سياق البحث في مسألة "الغيريّة" أو "الآخريّة" l´altérité، وهي مسألة على قدر كبير من الأهميّة لأسباب كثيرة منها:

1- راهنيّتها؛ فمازال "الآخر" الديني (تخصيصا لمصطلح "الآخر" l'autre الذي يعني في معناه العام: المختلف ثقافيا من حيث العرق أو اللون أو اللغة أو الدين) أو "غير المسلم" جزءا لا يتجزّأ من المشهد اليومي في المجتمعات الإسلامية شرقيّها وغربيّها، مثلما كان مكوّنا أساسيا بل وحاسما في صنع الحضارة العربية الإسلامية، وصياغة نصوصها وآليات التفكير والكتابة فيها، والفعل في هيئة الاجتماع الديني والاقتصادي والسياسي.

2- ما تطرحه على "الأنا" المسلم و"الآخر" غير المسلم من تحديّات فكريّة وسياسيّة واجتماعيّة ودينيّة، ولاسيّما في ظلّ تعقّد مسالك الحوار، وعسر التعايش الذي نشهده اليوم بين طرفين تقاسما طيلة تاريخهما الأرض والثقافة والتاريخ والمصير، ومع ذلك يبقى الإقصاء المتبادل بمختلف أشكاله سيّد الموقف.

3- ما تثيره هذه القضية من أسئلة حول طبيعة الظاهرة الدينية عموما في علاقتها بما يحيط بها من الظواهر، وحول تاريخ المجتمعات العربية الإسلامية والشعوب التي احتوتها إثر حركة "الفتح" الإسلامي، وحول الآليات التي حكمت التعايش والتساكن بين المسلمين والنصارى تاريخيا، وحول طبيعة الخطاب الفقهي الذي قنّن وما يزال وضعية الآخر غير المسلم في أرض المسلمين، وحول مدى جدوى استمرار التمسك بمفاهيمه أو الدفاع عنه وعن مرجعيّاته النصية الدينية.

4- حتميّتها من وجهة نظر فلسفية وجوديّة: فالآخر غير المسلم ليس شريكا للذات العربية المسلمة في التاريخ والأرض والمصير فقط، إنما هو جزء من كينونتها بالمعنى الفلسفي، وهو صانع للعالم الذي يحيط بها، وهو ما عبّر عنه المفكر التونسي "عبد الوهاب بوحديبة" بالقول: "نحن نولد جميعا في الغيريّة، ونثبت

ذاتنا في نطاق الغيريّة"[1]. فإثبات الأنا لكينونتها ووجودها في العالم لا يكون دون تفاعل جدلي مع أنوات أخرى، لتتميز الأنا عن غيرها وتستقل عن أشباهها. وهو ما ذهب إليه "سارتر" لما طرح سؤاله الوجودي: "هل أستطيع أن أوجَد دون الغير؟"، وأجاب عنه بأن الأنا هو الغير، وأن هذا الغير autrui ضروري لوجود الأنا ومعرفتها بنفسها بوصفها ذاتا حرة متعالية[2].

Introduction

This article is about the Christianity of the Arab and Islamic East tackled within the context of exploring the issue of “Otherness” or “Alterity”,as a matter of great importance for the following reasons:

1. Its immediacy: The religious “Other” (A term specifically designated to refer to “the Other,” l'autre which generally means: A cultural being different in terms of race, color, language or religion) or a “non-Muslim” is still making part and parcel of the daily scene in the Islamic societies in the East and Westin the way he used to be an essential and even decisive component in the making of the Arab-Islamic civilization, in formulating its texts and the mechanisms of thinking and writing about it, and in taking actions in the social religious, economic and political bodies.
2. It presents intellectual, political, social and religious challenges to the Muslim “self” and the non-Muslim “other”, especially under the complexity of channels of dialogue and the difficulty of coexistence that we are witnessing today between two parties that have been dividing, throughout their history, land, culture, history and destiny. In spite of this, mutual exclusion, with its various forms, remains the master of the situation.
3. For various questions raised by this issue: on the nature of the religious phenomenon in general and in its relationship to the phenomena surrounding it, on the history of the Arab Islamic societies and the peoples that contained it upon the Islamic “conquest” movement. This issue, also, raised questions on the mechanisms that historically governed coexistence and co-habitation between Muslims and Christians, on the nature of the jurisprudential discourse that has been regulating the status of the non-Muslim Other in the

---

1 – عبد الوهاب بوحديبة، القصد في الغيريّة، الوسيطي للنشر، تونس، 2001.

2 – فصول كثيرة من كتاب جان بول سارتر: الوجود والعدم، تخوض في مسألة الغيريّة من زاوية نظر فلسفيّة وجوديّة؛ وتقوم على فكرة وجود الغير في الأنا، وعلى استحالة معرفة الذات خارج ذلك الآخر. راجع: الوجود والعدم، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار الآداب، بيروت، ط1، 1966، ص ص 385- 394.

land of Muslims, and on the feasibility of continuing to adhere to his concepts or defend him and his religious textual background.

4. For its inevitability from an existential philosophical point of view: the non-Muslim other is not only a partner of the Arab Muslim subject in history, land and destiny. Rather, he is making part of its being in the philosophical sense, and he is the maker of the world that surrounds it. This is what the Tunisian thinker "Abdel-Wahab Bouhdiba" expressed by saying that "We are all born into Otherness, and we establish ourselves within the scope of otherness"[3]. The ego's proof of its being and its existence in the world does not attain without a dialectical interaction with other egos for the ego to be distinguished from others and be independent of its semi-peers. Which is what Sartre alluded to when he posed his existential question: “Can I exist without others?” And he answered that the ego is the Other, and that this Other autrui is necessary for the existence of the Ego and for its self-knowledge as a free and transcendent self [4].

زاوية النظر في طرق الموضوع:

لا نطرق قضيّة مسيحية بلدان المشرق الإسلامي، أو المسيحية العربية كما يحلو للبعض تسميتها – من منطلق تحليل وضعها السياسي الراهن في المنطقة العربية، في ظلّ مشهد سياسي وعسكري مهترئ وبائس؛ تستثمر في صراعاته ورقة مسألة الأقليّات، ويصوّر الفضاء العربي فيها تصويرا نمطيا على أنّه فضاء طارد ومعادٍ لمكوّناته الدينية غير المسلمة. إذ ليس هاجسنا –في هذا السياق– التحليل السياسيّ للوضع الراهن وتداعياته في المنطقة العربية، ولا دراسة الأدوات التي يدار بها الصراع العربي الغربي تحديدا.

– كما أنّنا لسنا بصدد الدفاع عن "أقليّة" دينيّة أو عرقيّة هي بصدد التلاشي والاندثار، وإن كنّا نعتقد أنّ الدفاع عن الأقليّات اليوم قد بات مسألة جوهريّة وبديهيّة تتنزل صلب إيمان الباحث الأكاديمي بحقوق الإنسان اللامشروط، بصرف النظر عن دينه ولغته وعرقه ولونه وجنسه...

– كما أننا لسنا في المقابل لسانا للدفاع عن الأنظمة العربية الإسلامية، أو عمّا يحكمها من مرجعيّات ثقافيّة وقيميّة ونصيّة؛ فما زال التمييز بين الأفراد والجماعات على أساس الدين والمعتقد والممارسة

التعبديّة قائما فيها وراسخا بقوّة، ومازالت النصوص القانونيّة والتشريعات والدساتير فيها لم ترق إلى مرتبة الاعتراف اللامشروط بالمواطنة الكاملة لغير المسلمين بدل وضع المواطنة المنقوصة أو "الذميّة" المهين للذات الإنسانيّة، ولم تبلغ بعد مرحلة تبنّي المساواة الكاملة بين المسلمين وغير المسلمين في الحقوق والحريات والامتيازات والخدمات والفرص...

– وإنما سيكون حديثنا عن المسيحية العربية من منطلق اختصاصنا في الدراسات العربية والإسلامية أولا وفي تاريخ المسيحيّة الشرقيّة وطقوسها ثانيا، وفي مقاربة الأديان والشأن الديني من وجهة نظر مقارنية وأنثروبولوجية ثالثا. ومن هذا الموقع سنحاول إضاءة جانب غائم ومغيّب ومجهول من حياة هذه الأقلية من جهة؛ وطرح جانب مسكوت عنه من تاريخهم الديني وحقيقة واقعهم الراهن ومآلات وجودهم المتشظّي على الأرض أو المتشرذم في أرض الشتات/ أعني الأقطار العربية والغربية التي لجأوا إليها اختيارا أو فرارا.

مسيحية بلاد الإسلام بين الماضي والحاضر

لقد عاشت الجماعات المسيحية المشرقية بالبلاد العربية الإسلامية بين ظهراني المسلمين القرون الطّوال، ولم تكن وافدة على الفضاء الإسلامي أو غريبة عنه؛ بل كانت هي صاحبة الدار قبل الفتح الإسلامي، وبقيت الأغلبية عدديا حتى بعد الفتح بقرون أربعة[5]. وهي مع تجذّرها القديم في الأرض والتاريخ الإسلاميين بصدد التّلاشي اليوم، وسط صمت غريب ومريب من الأنظمة السياسية العربية وأذرعها الحاكمة.

والغريب أنه لا يُعرف عن أحوال معيش هذه المسيحية بالأمس واليوم، ولا عن انتظام طقوسها وطوائفها الشّيء الكثير. والحقيقة أننا لا نلمس هذا الجهل المطبق بمسيحيّي المشرق الإسلامي لدى مخالفيهم في الملّة من المسلمين فحسب، أو لدى مخالفيهم في المذهب من المسيحيّين الغربيّين الكاثوليك والبروتستانت فقط، بل نراه كذلك لدى أتباع المذهب الواحد والفرقة نفسها وأهل الطائفة عينها. فترى ابن هذه الطائفة المسيحيّة أو تلك "تائها في تاريخ طائفته، يجهل حقيقة ماضيها، ولا يعرف سوى القليل عن معتقدها"[6]. وهذا الجهل بحقيقة الطائفة وتاريخها ومقالاتها وطقوسها، هو ما يعمّق "عقدة الخوف" لدى أبناء الطائفة من بعضهم بعض، فينتج

[5] – انظر رسالة الدكتوراه التي ناقشتها بكلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة (فيفري 2017م)، وهي بحث مستفيض حول وضعية المسيحية الشرقية وطقوسها (750ص)، وعنوانها: "شعائر نصارى دار الإسلام بين الأحكام والأيام"، إشراف الأستاذ وحيد السعفي.

[6] – سمير عبده، المسيحيّون السّوريّون قديما وحديثا، دار علاء الدّين، سورية– دمشق، ط2، 2002، ص 6.

عن ذلك نوع من "أيديولوجيا انعزاليّة ومادّة تخويف وتحريض، تستغلّ لتغذية العصبيّة الطائفيّة"[7].

لقد عاشت هذه المسيحية ولاتزال في العتمة؛ فأبناء الدين نفسه في الكنيسة الغربيّة لم يعرفوا أن هناك مسيحيّة أخرى غيرهم إلا إبّان الحروب الصليبيّة؛ إذ اكتشفوا حينها الطائفة المسيحيّةَ الشرقيّةَ الملْكيّةَ في القدس وبلاد الشّام، وعملوا على احتوائها وإخضاعها اعتقادا وتنظيما كهنوتيّا، ونجحوا في ذلك نهائيا في القرن السّابع عشر الميلادي بضمّ خرفانها إلى الحضيرة الكاثوليكيّة. أمّا طائفة "النّساطرة" الأقدم، فلم تكن الكنيسة الكاثوليكيّة تعلم الشّيء الكثير عنها قبل بعثة وادي الفرات (سنة 1835م)، وما كانت تدرك طبيعة تديّن أنصارها، أو دقائق حياتهم الطقسيّة واختلافاتهم عنها. كان وجه "كنيسة العرب" – كما يدعوها "جون كوربان" Jean Corbon – محجّبا في عيون شقيقاتها في الغرب والشّرق على حدّ سواء، ومحجّبا أيضا في عيون إخوتها الأقرب إليها، العرب المسلمين الذين تحيا بينهم. هذا ما يجوّز لنا استعارة تسمية هذه المسيحيّة بـ "الكنيسة المنسيّة"[8].

ليست المسيحيّة الشرقية التي نعنيها بهذا المقال المسيحيّة الغربيّة الكاثوليكيّة الممثّلة في شخص "البابا" بروما، ولا هي التي يرقص المؤمنون على ترانيم صلواتها يوم قدّاس الأحد في الكنائس الإنجيليّة والبروتستانتيّة الغربيّة والإفريقيّة التي نراها اليوم...بل إنّ المسيحيّة التي ندرس، معتنقوها اليوم "أقلّية" في العالم الإسلامي بعد أن كانوا "أكثريّة". وهم غائبون عن الأعين سياسيّا لأنّ تمثيلهم السياسي ضعيف، مع أنّ طوائفهم مبثوثة في كلّ مكان، تعمّر المدن والأحياء والقرى في بلدان المشرق الإسلامي. لكنّهم يحيَون –في غالبهم– في صمت، لأنّهم يعانون – كما المسلمين– من ويلات الحرب التي اشتعل سعيرها في العراق وسوريا ولم تخمد حتى السّاعة.

إنّ المسيحيّة التي نتحدث عنها هي مسيحيّة أفل نجمها بعد طول إشراق، وقلّ عدد أنصارها إما بفعل الأسلمة (إبّان حركة الفتح الإسلامي)، أو بفعل التّقتيل والتّهجير والتّشتيت الذي عرفوه عبر التاريخ في عهد المغول والتتار والصليبيّين والأتراك العثمانيّين، إلى حدّ شارفوا فيه في بعض الطوائف على التّلاشي والاندثار والهلاك. ومع أنّ عزم الكثيرين منهم قد فلّ ولم يصمد أمام الاضطهاد والتّدجين والتّغريب والاحتواء، فهاجروا إلى ديار غير ديارهم، وتركوا أوطانهم التي كانوا يحيون فيها قبل الإسلام وبعده إلى "ديار الغرب" علّها تكون لهم الملجأ الآمن الذي يعصمهم من هلاك موشك، وأملا منهم في الاعتراف بهم كيانا دينيا مسيحيّا مستقلّا، وأقلية دينية محميّة، إلا أنّ الكثيرين منهم صمدوا في أوطانهم، واستماتوا في

---

7 – م. نفسه، ص. نفسها.

8 - Jean Corbon, L' Eglise des Arabes, Les Editiond du Cerf, Paris, 1977, pp 11- 12.

الحفاظ على دينهم ومذهبهم وأرض أجدادهم، وحرصوا على عدم التفريط في إرثهم الثقافي والديني (من الكنائس والأديرة) وفي جماعاتهم الإثنية والطقسيّة.

هؤلاء ذاقوا ويلات الاضطهاد في فترات التاريخ ما قبل الإسلامي (على أيدي الفرس والرومان والبيزنطيين/ الروم)، وفي بعض الفترات الإسلامية المظلمة سياسيّا (وهي والحق قليلة في العصر الوسيط لا تقارن بفترات السلام التي كان المسيحيّون يحيون فيها آمنين جنبا إلى جنب مع إخوانهم المسلمين)، وفي زمن الغزوات العسكرية للتتار والمغول والصليبيين كحال إخوانهم المسلمين...

أما تاريخهم الحديث فمطبوع بفترات سواد دشّنتها المجزرة التي قام بها العثمانيون على الأرمن، وتنتهي بالإبادة الجماعية والتعذيب والتهجير القسري وغيرها من الممارسات الوحشية التي اقترفها تنظيم الدولة الإسلامية بالشام والعراق (داعش).

هؤلاء المسيحيّون كانوا في عهد قريب من هذا العهد (وتحديدا ابتداءً من القرن السابع عشر الميلادي) عرضة للاحتواء والجذب والتغرير بهم من جانب الكنيسة الكاثوليكية الغربية، وكانوا الحلقة الأضعف في نسيج المجتمعات الإسلاميّة، فإذا حدث اضطراب أو ثورة كانوا أوّل القرابين تقديما على موائد الساسة. وكانوا على مرّ السنين الطوال كالمستجيرين من الرّمضاء بالنّار، إذ حاولوا الخلاص – في العصور الحديثة– من وضع الذميّة أو "المواطنة المشروطة" في الأوطان الإسلاميّة التي يحيون فيها إلى وضعيّة "المواطنة الكاملة"، بناء على وهم الانعتاق من ربقة العبوديّة والذميّة ذاك الذي أوهمت به الكنيسة الكاثوليكيّة الرعايا المسيحيين في بلدان المشرق الإسلامي. إذ أرادت كنيسة "روما" من خلال احتوائهم أن تحقّق مخطّطها التّبشيري بالدين الحقّ والمذهب القويم، وأن تستعيد حلمها القديم بأن تبسط زعامتها الروحيّة على كلّ الطوائف المسيحيّة (ولاسيّما الشرقيّة منها) خصوصا بعد فشل حملاتها الصليبيّة، وأن تحقّق حلمها التوسّعيّ القديم بقيام إمبراطورية رومانية كاثوليكيّة جديدة، جامعة لكلّ المذاهب والكنائس تحت راية "بابا" الفاتيكان خليفة القدّيس بطرس هامّة الرّسل.

هكذا ألقت الآلاف المؤلفة من المسيحيين الشرقيين (أو المسيحيين العرب انتسابا منهم للمنطقة واللغة العربيّتين) في مناطق يشكّلون فيها "أقليّة" دينية مذهبية وعرقية أحيانا، بأنفسهم في أحضان كنيسة "روما" في القرون الأخيرة، وقبلوا أن يصيروا الخرفان العائدة إلى راعيها بعد طول ضلال، واختاروا الشركة الروحية بالبابوية الكاثوليكية الرومانية.

لقد فهم هذا الشقّ من المسيحيّة الشرقيّة القديمة قانون اللّعبة، وأدرك أتباعه أن لن يكون لهم وجود واستمرار وضغط إلّا بالتّحالف مع المذهب المسيحيّ الأقوى دينيّا وسياسيّا وعسكريّا وهو "المذهب الكاثوليكيّ"، ولا سيّما أنّ المعسكر الغربي المسيحي قد بدأ يتبلور ويتشكّل تحت قيادة أنظمة غربيّة

استعمارية عاتية (ممثّلة ببريطانيا وفرنسا) آخذة في التوسع والاستيطان في الأقطار العربيّة. ولم تتوان "روما" –والحقّ يقال– في القرون الميلاديّة الثلاثة الأخيرة عن القيام بدور السّند الرّوحي والسّياسي لتلك الأقليات والطوائف المسيحية، واليد الكريمة الرّحيمة بها في ظلّ تراخي الأنظمة العربية الحاكمة عن تقديم السند والحماية لها.

أمّا المسيحيّون الذين لم يستسلموا لإغراءات روما، ولم تقبل طوائفهم الشركة الروحية بالبابوية، أو قبلت بالانضمام إليها مذهبيا دون أن تهاجر من أرضها إلى الغرب بحثا عن الحماية الوهمية، فقد انكفأوا على آثارهم وكنائسهم ومصنّفاتهم وتاريخهم المجيد، يحفظونها من غيلة الدّهر وآفات الزّمان، خشية أن يحترق تاريخ تراثهم الطويل في سعير الصّراع الحضاري القائم اليوم[9].

هؤلاء الصامدون في وجه التغريب والتهجير والتقتيل، المقدّمون في حربي العراق وسوريا الأخيرتين قرابين بشرية مع طوائف أخرى (كاليزيديين والتركمان والكاكائيين...)، هم موضوع بحثنا ومشغلنا المهم.

إنّ أهميّة تسليط الضوء على هذه الأقليات لا تتأتى من كون تهجيرهم وتقتيلهم واضطهادهم مسألةً إنسانية حقوقية تتعلق بحقوق الأقليات في المساواة بغيرهم من المواطنين وفي الحياة الكريمة والحريات الدينية والقانونية والاجتماعية والسياسية فقط، إنّما تتأتّى من كونهم أيضا عقدا ثمينا جدا في جيد البلدان العربية والإسلامية أخذت حبّاته تنفرط الواحدة بعد الأخرى، وبتعبير علمي لأنهم يشكّلون "آثارا كلسيّة حجريّة" (على حدّ تعبير الباحثين الغربيّين في التاريخ المسيحي والكوني اليوم)، لا تقدّر بثمن لمسيحيّة الأصول والبدايات، تلك المسيحية التي لم يبق منها إلّا بضعة شواهد متفرّقة هنا وهناك؛ مازلنا نرى آثارها في الكنائس القبطيّة بمصر، ولكنّها آخذة في التّلاشي والتراجع في الكنائس السّريانية (اليعقوبيّة والملكيّة) بسوريا، وشارفت على الانقراض والبوار في بقايا الكنيسة النّسطوريّة الآشوريّة والكلدانية في العراق المسمّاة بـ "البيعة المشرقيّة"[10]. ولهذا سنركّز النظر على مسيحية العراق دون بقية المسيحيات في منطقة الشرق الأوسط، لأنّها المسيحيّة المهدّدة بالانقراض أكثر من أخواتها في الشرق الأوسط.

توصيف للواقع الراهن

إنّ واقع هذه الأقلية الدينية بالعراق باعث على الحزن والأسى، كحال بلد بأكمله؛ ولاسيّما بعد سقوط

---

[9] – سهيل قاشا، تاريخ التراث العربي المسيحي، منشورات الرّسل، لبنان، 2003، ص 7.

[10] – لمزيد التفصيل حول البطريركيات والكنائس المسيحية الشرقية، وتفريعاتها وكراسيها في البلدان العربية والغربية بين الأمس واليوم، يمكن العودة إلى:
Claude Lorieux, Chrétiens d'Orient en terre d'Islam, Perrin, 2001, pp 16- 33.

"الموصل" بين أيدي تنظيم "داعش".

وإن التاريخ المعاصر الحزين لا ينفصل عن تاريخ الأمس القريب في بدايات القرن العشرين، حينما عمدت حكومة تركيا الفتاة في الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها إلى القيام بإبادة جماعية للأرمن بالخصوص (أعداد الضحايا الأرمن فقط تقدر ما بين 1 مليون و1.5 مليون نسمة) وللآشوريين (ما بين 250 – 500 ألفا) والسريان والكلدان، سمّيت هذه المذابح بمذابح "سيفو" وتعرف كذلك بالمذابح الآشورية، وذهب ضحيّتها مئات الآلاف من المسيحيين، وهُجّر مثلهم[11].

أمّا الناجون من مسيحيي العراق من مجازر الأكراد والعثمانيّين والحكومة العراقيّة (مجزرة بلدة سميل سنة 1933 وذهب الآشوريون ضحيتها)[12]، فقد احتموا ببعض القرى والمدن وظنّوها عاصما لهم من القتل والاضطهاد، بعد أن لاذ بطرك كنيسة المشرق سنة 1915م بأرمينيا. تشرذم أنصار هذه الكنيسة وأساقفتها، وما عاد يُعرف الشّيء الكثير من أخبارها، سوى أنّ أغلب أبنائها هاجروا إلى الغرب[13]، خوفا من التّقتيل والتّهجير والأسر والنّهب في فترات الاضطراب السّياسي وتصاعد وتيرة التطرّف الديني... ولكنّ تلك المخاوف أضحت حقيقة باندلاع حرب العراق سنة 1993م، وبهجوم تنظيم داعش الإرهابي عليها عام 2014م. وبتصاعد وتيرة العنف – بالتقتيل والتشريد والتهجير– أخذ عدد مسيحيي العراق في التضاؤل بنسبة 83 %، ليتقلّص من حوالي مليون ونصف المليون مسيحيّا قبلها إلى 250 ألفا فقط اليوم. فبعد هجوم تنظيم الدولة الإسلامية على الموصل، نزح أكثر من 125 ألف مسيحي عراقي من أرضه، وفقد عشرات الآلاف منهم ممتلكاتهم ومنازلهم وتجارتهم، وإلى اليوم لم تعوّض الدولة لهم

---

11 انظر:
The Divinely-Protected, Well-Flourishing Domain: The Establishment Of The Ottoman System in the Balkan Peninsula", Sean Krummerich, Loyola University New Orleans, The Student Historical Journal, Volume 30, 1998-99.
نسخة رقمية محفوظة بتاريخ 10 يونيو 2009 على موقع واي باك مشين Wayback Machine

12 – يذكر في هذا السياق أنّ العثمانيّين قاموا بعدّة مجازر استهدفت المسيحيّين الآشوريّين والأرمن بالخصوص. كما هجمت قوّات كرديّة غير نظاميّة على آشوريّي "حكاري"، فخرّبت معظم قراهم. وقامت الحكومة العراقيّة في شمال العراق (سنة 1933م) بمجزرة في بلدة سميل، راح ضحيّتها المئات، كما خرّبت ستّين قرية آشوريّة من بين أربع وستّين بين دهوك والموصل. لمزيد التوسّع، انظر المرجع القيّم حول كنيسة المشرق:
Winkler Dietmar W. & Baum Wilhelm, The Church of the East: A Concise History, Taylor & Francis Central Asian Studies, Routledge, 2010, pp. 134, 137.

13 – Ibid., p 137.

خسائرهم.

وبعد أن طُرد ذلك التنظيم من الموصل بشمالي العراق في يوليو/ تموز 2017م، كانت منازل مسيحيين كثيرة قد دكّت بالأرض دكّا انتقاما وتشفّيا، ودمّر عدد كبير من أقدم الكنائس والأديرة (التي طالما تغنّى بها المسلمون في أخبارهم وأسمارهم وأشعارهم، وكانوا يزورونها، ويقيمون في الاستراحات والخمارات التي تتبعها، يشربون فيها الأنخاب ويحتفلون بالأعياد والأيام المشهودة[14])، وسرق ما فيها من ذخائر وكنوز عمرها لا يقدّر بالسنين...حتى صرخ المطران "بشار متى وردة" في خطاب ألقاه بلندن: "نحن على وشك الانقراض بعد 1400 عام من الاضطهاد"[15]، وأخذ رئيس الأساقفة في تسويق خطاب تحذير الغرب من التقاعس عن حماية المسيحيين العراقيين.

إنّ ما حدث في العراق الجريح في السنوات الأخيرة هو إبادة بشرية للعنصر البشري أولا، ولجملة من الطوائف الدينيّة القديمة التي تعتبر المسيحية أهمّها (على الأقل عدديا). وفي سياق هذا الاستنزاف الدموي، يُستغلّ ملفّ حماية الأقلية الدينية من جانب أنظمة غربية ومؤسّسات دينية كهنوتية كالفاتيكان بروما، لمهاجمة الدول العربية ورميها باضطهاد الأقليات ومحاولة إبادتهم في إطار ذلك الصراع القديم بين أنصار الصليب وأنصار الإسلام. ومثال ذلك الكاردينال فرناندو فيلوني الإيطالي Fernando Filoni (الذي يعتبر من الوجوه البارزة لديبلوماسية الفاتيكان في العراق والأردن، ويترأس أعلى هيئات التبشير وأنجلة الشعوب في العالم الكاثوليكي)، الذي ألف كتابا عنوانه "الكنيسة في العراق"[(16)]، ليتلقّف

---

14 – يمكن العودة كمثال على الكتب التي أرخت إلى الكنائس والديارات التي كان المسلمون يزورونها ويقيمون فيها إلى: الشابشتي أبو الحسن علي (ت 388 هـ/ 998م)، كناب الديارات، تحقيق كوركيس عوّاد، مطبعة المعارف، بغداد، 1951م.

15 – راجع موقع عشتار تيفي كوم – السومرية نيوز/ 30- 05- 2019، على الرابط: https://ishtartv.com/viewarticle,88050.html

16 – انظر نص المقابلة مع هذا الكاردينال حول كتابه "الكنيسة في العراق"، قام بها فريق زينيت، بتاريخ 23 يوليو 2015، على الرابط: https://ar.zenit.org/articles/%D9%85%D9%82%D8%A7%D8%A8%D9%84%D8%A9-%D9%85%D8%B9-%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%A7%D8%B1%D8%AF%D9%8A%D9%86%D8%A7%D9%84-%D9%81%D9%8A%D9%84%D9%88%D9%86%D9%8A-%D8%AD%D9%88%D9%84-%D8%A7%D9%84%D9%83%D9%86%D9%8A/

هذه الأقلية الضائعة الجريحة، ويعيدها إلى أحضان راعيها الأول/ الكنيسة الكاثوليكية المقدسة[17].

الأبعاد والمآلات:

لا شك أن الأقليات هي الحلقة الأضعف التي تُستهدف في الحروب والنزاعات، وهي الكيان المخترق أكثر من غيره للنيل من النظام الخصم. ليس فقط لضعف التمثيلية العددية والسياسية أمام الأغلبية المسلمة، ولكن لأنه في سياقات الحروب تستغل مواطن الخلاف والاختلاف، وتُغذّى الفروق الإيديولوجية والاختلافات العقدية والمذهبية، وتطفو على السطح فكرة حلف الأقليات تشجيعا على الانفصال والاستقلال عن النظام الحاكم. وفي هذا السياق تستغل كل الأقليات العرقية واللغوية والدينية وكل الاختلافات الطبقية لبث الفرقة والتفكك الطائفي في أوصال الدول المستهدفة وإضعافها.

والخطر يكمن في تغذية العداوة الداخلية بين الأقلية والأغلبية من جهة، وضرب تاريخ التعايش السلمي والتآلف بين دينين على أرض واحدة قرونا طويلة. فضلا عن أنّ ذلك سيضمن تغيير جهة الولاء والتبعية (من الولاء للوطن والدولة القومية، إلى الولاء للسلطة الروحية الأرحم من الدولة العربية الإسلامية برعاياها المسيحيين. زيادة على أن استقطاب الأقلية الدينية دينيا سيؤدي بالضرورة إلى مزيد من التشققات المذهبية والتشظي الطائفي وتعدد التجمعات الإثنية (المسيحيون العراقيون اليوم موزّعون بين الأورثوذكس والكاثوليك/ الكلدان Chaldéens[18] والبروتستانت والإنجيليين والآشوريين/ النساطرة).

ويثير ذلك طرح مسألة خطر "الكنائس العابرة للقارات" التي تعبّر بعض الجمعيات الناشئة عن أهدافها التوسعيّة وقدراتها على الهيمنة على الأقليات الدينية المسيحية اليوم[19]، وهي متمرّسة بالتحكم في اقتصاد المقدس على مستوى عالمي، بل هي تتاجر بالمقدس وبالمشاعر الدينية، على غرار الإنجيليات الجديدة والكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية التي تحاول استقطاب المسيحية الشرقية.

---

17 – انظر مقال عزّ الدين عناية (أستاذ تونسي بجامعة روما)، "المسيحيّة في العراق"، صدر بالحوار المتمدن، يوم 14 يناير 2018 (وقعت العودة إلى هذا المقال يوم 31/ 01/ 2020)، على الرابط:
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=585936&r=0
وقد سلّط الضوء في مقاله على كتاب الكردينال فرناندو فيلوني، وفضح الجهود التي تبذلها كنيسة البابا بروما لاستعادة الشرق ونشر المذهب الكاثوليكي في ربوعه.

18 – وهم الشق الكاثوليكي من الكنيسة النسطورية، وقد اتحدوا بروما وصاروا يتبعونها إداريا على الرغم من إبقائهم على الطقوس الشرقية الأصلية.

19 – انظر مثالا على ذلك "زيرمات جمعية الكنيسة العابرة للقارات" بماترهورن/ سويسرا.

إنّ خطر هذه الإبادة العرقية والإنسانية للطوائف المسيحيّة في بلدان المشرق العربي لا يتأتى من تبعاته على المجموعة الإنسانية عامّة فقط، وإن كان الأمر مطروحا بشدّة في علاقة بإبادة للعنصر العربي عموما بكامل أطيافه الإثنية وطوائفه الدينية والمذهبية، ولكنّ الخطر –كل الخطر– سببه تهديد مكوّن نادر وفريد من مكوّنات المجتمع الإسلامي، نجد فيه العلامة الدالّة على قدم هذا المجتمع وعراقته، بل واحتوائه مجموعات دينيّة هي الأقدم في تاريخ الأديان، وهي الدال الأركيولوجي قائم الذات على وجود مسيحيّة غير المسيحيّة التي عرفناها إبان الحروب الصليبيّة وحروب التوسع الاستعماري الغربي وغير المسيحيّة الرسميّة الكاثوليكيّة التي تتصدّر المشهد الديني العالمي اليوم، وتتعامل بعلياء وتفوّق وكأنها الأصل والمرجع، وما سواها هرطوقي مبتدع هامشي.

ينبغي أن نعي أنّ المسيحيّة العراقية العربية اليوم هي في أصولها أعرق بكثير من الكنيسة الكاثوليكية الغربية، وهي أقدم المسيحيات على وجه الأرض، الأقرب إلى المسيح نسبا ولغة واعتقادا وطقسا، (وخصوصا في الكنائس الآشورية العراقية التي تتكلم السريانية الشرقية (سليلة اللغة الآرامية أو لسان المسيح)، والسريانية الغربية في سوريا)، وأنّ كنائسها التي تدمّر الواحدة بعد الأخرى وتقصف تحت نيران المدافع وتنهب ذخائرها وتماثيلها وأدواتها الطقسية القديمة والثمينة قد بلغت من العمر عتيّا، وشارفت على ما ينيف عن تسعة عشر قرنا أو يزيد من العمر. فضلا عن أنّ فيها آثارا من "النّصرانيّة" "المسيهودية الموحّدة التي سكنت ربوع شبه الجزيرة العربيّة[20]، وتشير الدراسات الدينية الإثنية والمقارنية اليوم إلى خروج الإسلام من محضنها.

التحديات:

– ينبغي أن نعترف اليوم بوجود أزمة ثقة تشوب العلاقة بين المسلمين وغيرهم، وبأنها ليست وليدة اليوم بل هي حصيلة تراكمات تاريخية كبيرة. فهناك جروح وندوب ما تزال بعد مفتوحة حيّة في ذاكرتهم لا تندمل أبدا، ولئن توسعنا فيها في جانبها المسيحي، فإننا لا نغفل أيضا عن مقابلها في الجانب الإسلامي (مثل الحروب الصليبيّة، ومحاكم التفتيش بالأندلس، والاستعمار الإنجليزي والفرنسي لدول المشرق والمغرب العربي، وما تلقاه الأقليات المسلمة اليوم في آسيا وإفريقيا من اضطهاد وعسف بسبب دينها).

– هل بوسعنا أن نتغاضى اليوم عن مسألة الأقليات أو أن تستهين بها في ظلّ الصراعات العالمية

[20] – Jean Danièlou, Les symboles Chrétiens primitifs, éd. Du Seuil, Paris VI, p 7.

الجديدة، وتحديدا في ظلّ الصراع العربي الغربي؟

– هل نحن في حلّ –بما نحن مسلمون– من مسؤولية تصدير الجماعات الإرهابية الأصولية الإسلامية خطاب الإرهاب والإقصاء والعنف تجاه الآخر؟ أليس السكوت عن هذا الخطاب تواطؤا مع الراديكالية الدينية ومشاركة لها منطلقاتها الدينية والأخلاقية وتأييدا لممارساتها الوحشية؟ فما دمنا لم نراجع بعد أدبيات الفقه الإسلامي وأحكام الذميّة والصّغار والجزية والخراج، ولم نُعد قراءة النص الديني وتأوّله على نحو جديد، ولم نضع مفاهيمه على محكّ التاريخ، فإننا سنحيا في شرخ مع حاضرنا ومستقبلنا.

– هل يسع الأقليات اليوم أن تصمد في وجه التقتيل والتشريد والاستنزاف والتجويع، وألّا تنضم إلى وليّ النعمة الجديد وإن كان في نياته استعماريا لها ولوطنها؟ أليس البحث عن الحماية – وإن كانت وهما وزيفا– مشروعا طالما كانت الحكومات والمنظمات العربية مكتوفة الأيدي أمام حروب الاستنزاف هذه؟ هل على الأقليات أن تُبقي على الولاء لأنظمة استهانت بها وهمّشتها ولم تجعلها في قائمة أولوياتها؟ ما مصير كينونة ممزقة بين الولاء للوطن والولاء للدين والولاء للسلطة الروحية الجديدة الحامية؟

– على الأنظمة العربية أن تسترجع الدور المهم جدا الذي قامت به الدولة الإسلامية في فترة تاريخية حاسمة من تاريخ المسيحيّة، وهو دور الحامي والملجأ الآمن لطوائف المسيحيين الشرقية، ولاسيما بعد أن عدّت هرطوقية وصدرت في حقها صكوك الحرم الكنسي في المجامع المسكونية. وعندما حدث الانشقاق بين القسطنطينيّة وروما في القرن الحادي عشر الميلادي، لم يكن شيء يعصم المسيحيين الشرقيين (ونعني أنصار المذهب المونوفيزي (اليعقوبي واليولياني) في مصر وسوريا، وأنصار المذهب النسطوري في العراق) إلا الحكم الإسلامي. فبيزنطة كانت مصدر اضطهاد لهم لأنهم لم يدخلوا في مذهب الملك (المذهب الملكي). وحتى الموارنة رحّبوا بحلول الحكم الإسلامي بدل الحكم البيزنطي بالشام، بعد أن حدث الافتراق الكنسي بين الموارنة والملكيين الأورثوذكس في أبراشية أنطاكية.

– طالما لم نتخلّ عن نظرة الانبهار بالآخر/ الغرب والإيمان بتفوّقه، وعن نظرة الاستغراب منه واستهجانه، فإننا سننتج الصورتين النمطيتين نفسيهما للعالمين الإسلامي والغربي، وسنبقي على صورة سلبية للمسيحي العربي. فالآخر في الثقافة الإسلامية هو شريك فاعل للمسلم في تقرير المصير، وينبغي في كل الظواهر الدينية والمجتمعيّة أن يحترم الأنا الخصوصية الدينية الذاتية للآخر، في إطار سياسي تحكمه المدنية والعلمانية، فلا سبيل فيه للخلط بين الدين والدولة، وكل الأفراد يتساوون فيه في الحقوق والواجبات، ولا فضل فيه لعربي مسلم على مسيحي أو يهودي أو ما سواهما... وهذا ما يعني كسر منطق الأفضلية الدينية للأمة الإسلامية على غيرها من الأمم، وإلغاء فكرة الكمال الأنطولوجي للدين الإسلامي على غيره من الأديان.

– لابدّ من أن ندرك خطر تأجيج خطاب الهويات الدينية وأثره في تشرذم المجتمعات وتفكّكها. وينبغي إدراك أن الآخر يمكن أن يختلف عن الذات في الدين أو العرق أو اللغة أو غيرها ويتشابه معها أو يشترك في الاهتمامات الفكرية والسياسية (مسألة الحريات مثلا) والهموم والأزمات الإنسانية (مثل أزمة انتشار وباء كورونا) والقيم الإنسانية (العدل، المساواة...)؛ فالرهان يبقى على الإنسان أوّلا وأخيرا.

المراجع

– المراجع بالعربية:
– بوحديبة عبد الوهاب، القصد في الغيريّة، الوسيطي للنشر، تونس، 2001.
– حمزة سماح، طقوس النصارى في ديار الإسلام، سلسلة المعرفة الدينيّة، دار مسكلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2021 (2أج).
– سارتر جان بول، الوجود والعدم، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار الآداب، بيروت، ط1، 1966.
– الشابشتي أبو الحسن علي (ت 388 هـ/ 998م)، كتاب الديارات، تحقيق كوركيس عوّاد، مطبعة المعارف، بغداد، 1951م.
– عبده سمير، المسيحيّون السّوريّون قديما وحديثا، دار علاء الدّين، سورية– دمشق، ط2، 2002.
– قاشا سهيل، تاريخ التراث العربي المسيحي، منشورات الرّسل، لبنان، 2003.
2– المراجع بالأعجمية:
- Corbon Jean, L' Eglise des Arabes, Les Editiond du Cerf, Paris, 1977.
- Dietmar Winkler W. & Baum Wilhelm, The Church of the East: A Concise History, Taylor & Francis Central Asian Studies, Routledge, 2010, pp. 134, 137.
-Danièlou Jean, Les symboles Chrétiens primitifs, éd. Du Seuil, Paris VI, p 7.
-Krummerich Sean, The Divinely-Protected, Well-Flourishing Domain: The Establishment Of The Ottoman System in the Balkan Peninsula", Loyola University New Orleans, The Student Historical Journal, Volume 30, 1998-99.
- Lorieux Claude, Chrétiens d'Orient en terre d'Islam, Perrin, 2001.
3– المواقع الإلكترونية:

- موقع عشتار تيفي كوم - السومرية نيوز/ 30- 05- 2019، على الرابط: https://ishtartv.com/viewarticle,88050.html

- نص المقابلة مع الكاردينال فرناندو فيلوني Fernando Filoni حول كتابه "الكنيسة في العراق"، قام بها فريق زينيت، بتاريخ 23 يوليو 2015، على الرابط: https://ar.zenit.org/articles

- مقال عزّ الدين عناية (أستاذ تونسي بجامعة روما)، "المسيحيّة في العراق"، صدر بالحوار المتمدن، يوم 14 يناير 2018 (وقعت العودة إلى هذا المقال يوم 31/ 01/ 2020)، على الرابط: http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=585936&r=0